اللغة العربية هويتنا ، وتحديات الحفاظ عليها

إعداد

دكتور / فردوس موسى موسى

كلية الآداب – جامعة عين شمس

جمهورية مصر العربية

1434هـ - 2013 م

اللغة العربية هويتنا ، وتحديات الحفاظ عليها

تقديم :

إن كل دولة فى عالمنا المعاصر تُعين لغة محددة فى دستورها تجعلها لغتها الرسمية التى تساعد على توحيد أفكار الناس واتجاهاتهم . هذه اللغة تُسمى اللغة النموذجية . كما تُسمى أحيانا اللغة القومية . (د . بديع محمد جمعة – اللغة العربية عماد هويتنا ، أين هذا من مدارس اللغات الأجنبية – مؤتمر اللغة العربية ، جامعة المدينة المنورة الإسلامية – ص 1)

إن اللغة العربية ، حاملة الرسالة السماوية ، ومبلغة الوحى الإلهى ، معجزته الخالدة ، وإعجازه الأزلى . وهى وعاء لكتاب الله نزل بها ، فشملت لفظه ، ووسعت تأويله فحفظها وسما بها بين اللغات إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . إنها لغة تعبد لأكثر من سدس سكان العالم كلهم يعبدون الله بلسان عربى ، صباح مساء ، وإن اختلفت أجناسهم وألوانهم ، وتباعدت ديارهم وتعددت لغاتهم ، فالشهادتان والصلاة والحج تؤدى باللغة العربية ، مما جعل معرفتها واجبة على كل مسلم ومسلمة . (د.عبد الله بن على الشلال – ظاهرة الضعف فى استعمال اللغة العربية فى التعليم العام ، ندوة ظاهرة الضعف اللغوى فى المرحلة الجامعية – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – الرياض 1995 م ، ص 14)

واللغة النموذجية فى حالنا نحن العرب – كما يقول أستاذنا المرحوم الدكتور / إبراهيم أنيس – هى تلك اللغة التى تُوسم بالعربية الفصحى أو الفصيحة ، وهى التى تمثل وحدة العرب ، والتى يتعرف إليها مصطلح " اللغة العربية " على المستوى السياسى فى الداخل والخارج على السواء . ولهذا فإن العناية بهذه اللغة والوقوف على مشكلاتها والتحديات التى تواجهها والخطيط لمستقبلها قد أضحى واجباً قومياً ، من حيث إن اللغة تشكل شخصية الأمة وتحدد خصوصيتها . فاللغة هى إذن بمثابة بطاقة هوية للأمة ، إذا ضاعت اللغة ضاعت معها هوية الأمة . (د . بديع محمد جمعة – مؤتمر اللغة العربية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة – القاهرة 2011م ، ص1)

وكما اعتزت اللغة العربية بعزة الإسلام فى الصدور، وعاشت أزهى نمائها ، وأوفى عطائها ، عرفت كيف تكون الجسر الأمين لعطاء الحضارات الأخرى فالحضارة العربية الإسلامية

استطاعت أن تستوعب الحضارات المختلفة - الفارسية والهندية واليونانية - وأن تجعل منها حضارة واحدة ، عالمية المنزع ، إنسانية الرؤى ، وذلك لأول مرة فى التاريخ فى ظل القرآن حتى أصبحت اللغة العربية لغة عالمية . (د.صالح الخرفى – اللغة العربية هويتنا القومية – تونس 1990 ، ص 17 – 18)

فالحضارة لاتأتى إلا عن طريق اللغة ، لأن الحضارة ببساطة هى اللغة وعن طريق اللغة يكون التفكير والتفاهم والتواصل والتفاعل بين العقول والأفكار فاللغة أضخم رصيد حضارى لاحدود له . (د.شكرى فيصل – مكانة اللغة من الحياة العربية والمجتمعات الإسلامية – تونس 1990 ، ص 32)

مكانة اللغة العربية :

نظراً لما تملكه اللغة العربية من غزارة المادة ونموها بالنقل والاشتقاق والقياس وجودة أساليبها وتعدد ألفاظها ، نالت من اهتمام أهلها بالتدوين والدراسة لخصائصها وأسرار جمالها ، وحظيت بكثرة المؤلفات نثراً ونظماً ما لم تحظ به لغة أخرى .

إذن اللغة العربية تنفرد بين كل اللغات بارتكازها على ركيزتين قويتين لا مثيل لهما فى أية لغة أخرى . الأولى : دينية ، تتمثل فى أنها لغة القرآن الكريم ، ومن ثم فهى باقية محفوظة ما بقيت الحياة لقوله عز وجل شأنه : " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون " . (سورة الحجر ، أية 9 .)

الثانية : حضارية ، إذ أن اللغة العربية لغة الإسلام ، الرسالة الحضارية الهادية لحياة إنسانية راقية . هذه الحقيقة فطن لها وتبينها عدد من المستشرقين حيث قالوا إن اللغة العربية لم تصبح لغة عالمية إلا بسبب القرآن والإسلام . (د.رمضان عبد التواب – فصول فى فقه اللغة العربية – القاهرة 1980 م ، ص 109)

لذلك لابد وأن يكون اهتمامنا باللغة العربية ينبع من عقيدة دينية ، ثم من عاطفة وطنية وقيم حضارية وموروثات اجتماعية . فاللغة هى وعاء الفكر ووسيلة الاتصال والتواصل والتفاهم . والأهم فهى رابطة قومية ترسخ جذور الانتماء للوطن ، وهى المخزون الذى لاينضب من خبرات أهلها وتجاربهم وفنونهم ومعارفهم . فليست اللغة أداة للتعبير فقط ولا هى وسيلة الفكر ووعاؤه

فحسب ، بل لعلها هى الفكر بذاته . (د.حافظ شمس الدين عبد الوهاب – تعلم لغة أجنبية وليس التعلم بلغة أجنبية ، مؤتمر اللغة العربية ، تحديات وآفاق بكلية الآداب – جامعة عين شمس 2010 م .)

إن العرب هم أمة لها تاريخ منذ القدم ، ومن المؤسف لم يعد لها جغرافية على خريطة التنمية والتقدم العلمى ومن هنا صار الحفاظ على هويتنا من الصعوبة بمكان . إن لغتنا العربية كأى لغة تعكس نمط حياتنا وكل ما يجرى على أرض الواقع فى عالمنا العربى من تنمية وتعليم وثقافة ، ومن هنا جاءت أهمية اللغة فى تعليم وتنمية الأمة كوعاء للفكر حفاظاً على الهوية وليس فقط كأداة للتواصل والتبادل بين الحضارات .

وتحرص جميع الأمم على الاعتزاز بلغتها القومية وتدافع لدرء أى خطر داخلى أو خارجى يهددها ، وخير مثال لذلك ما فعله الفرنسيون بعد الحرب العالمية الثانية عندما ظهرت أمريكا كقوة سياسية واقتصادية ، هنا شعر الفرنسيون بأن الغزو الفكرى الأمريكى يهدد كيانهم ولغتهم .

أما عندنا فإن اللغة العربية لم تتعرض للهجوم فى عقر دارها من لغة أجنبية واحدة ، بل من أكثر من لغة أجنبية مثل الإنجليزية والفرنسية والألمانية متمثلة فى مؤسسات تعليمية وثقافية مثل الجامعة الأمريكية والجامعة الفرنسية والجامعة البريطانية والجامعة الجامعة الألمانية والجامعة الكندية وغيرها فى كثير من البلدان العربية .

وفى حقيقة الأمر يمكننا صياغة تاريخ البشرية على أساس من صراعاتها اللغوية ، فالأمم تبقى أو تزول ببقاء لغتها أو زوالها . لقد كانت ومازالت خطورة اللغة العربية وأهميتها فى تشكيل بناء الإنسان العربى ، فى أنها لم تكن مجرد وسيلة للتفاهم أو أداة للتخاطب فحسب بل كانت أكثر من ذلك ، لقد كانت المجال الذى أظهر فيه العرب طاقاتهم البيانية وتجلت فيه عبقريتهم البلاغية وكانت الوعاء الذى أودعوه قيمهم ومشاعرهم وكينونتهم . واللسان العربى من أقدم الألسنة وأقدم تشريع مكتوب فى التاريخ باللغة العربية كما أشرت فى صدارة هذا البحث . فلغتنا العربية تعنى أصالتنا الضاربة بجذورها فى أعماق التاريخ حيث ظهر جلياً قدم اللغة العربية وأصالتها .

إن عزل اللغة الأم عن مناخها الطبيعى ومنظومتها الاجتماعية ، هو العامل الأقوى فى تفكيك الشعوب ، ومعايشة اللغة بتلقائية وطبيعية فى مرحلة الطفولة لها أهمية خاصة ، ففيها يتم

تكوين الحاسة اللغوية ، وتنمية القدرات المتصلة بها نطقاً وأداءً ولهذا فإن التعليم بالعربية فى هذة المرحلة ضرورة . لأن اللغة تشغل مكانة هامة فى حياة الإنسان ، وهى تتشكل من مجموعة من الرموز التى تتصل ببعضها لتشكل تراكيب تأخذ شكل الكلمات والعبارات التى تشير إلى معانٍ محددة تعبر عما بداخل الإنسان ، إذ تصبح هى وحدات التفاعل والتواصل بين البشر . وباللغة يتواصل الإنسان فى بيئته مع الآخر ، وبها أيضاً يتشكل وعى الإنسان بعالمه المحيط به . لذلك كانت اللغة العربية تمثل بُعداً أساسياً من هوية الإنسان والجماعة والمجتمع .

فالإنسان يشعر بذاته وهو يعبر بلغته ، لأن اللغة فى هذه الحالة جزء من ذاته . يشعر بالغربة حينما يعبر عن معانيه بلغة أجنبية غريبة عن محيطه وبيئته الاحتماعية . ويؤكد كثير من المفكرين على أن اللغة العربية لها خصوصيتها باعتبارها أحد الأبعاد المحورية للهوية وثقافة القومية العربية . ورأى بعضهم أن اللغة العربية هى التى شكلت تاريخياً القاسم المشترك الأول لتنوير الوعى العربى ، وذلك حتى قبل ظهور الإسلام . من هنا يجب اعتبار الهوية العربية شأناً حضارياً ثقافياً لا شأناً عنصرياً أو إقليمياً أو دينياً . (د.على ليلة – دور البحث العلمى فى مواجهة الاختراق للهوية القومية – القاهرة 2010 م ، ص 3)

وإذا كان دعاة الفرنجة يتهمون اللغة العربية بالقصور وعدم القدرة على التعبير عن علوم العصر ، فهل كانت اللغة العربية قاصرة فى سابق الأيام حتى تكون قاصرة الآن ؟!!

إنه القصور فى متحدثيها ، لا فى مفرداتها ومصطلحاتها . وعلى الوجه الآخر إذا نظرنا إلى حال لغتنا العربية – وهى من أقدم لغات شعوب الأرض استمرارية ، مهما تقلبت الحضارات وتبدلت الثقافات – فإننا سنجد أن لغتنا العربية شهدت فى السنوات الأخيرة تراجعاً ، وأوجدت قلقاً بالغاً لدى المشتغلين بالتعليم والثقافة فى كافة المراحل . وبلغ مستوى الضعف والاستهانة باللغة العربية ومكانتها درجة سيئة أشاعت الألم والأسى فى نفوس كل من يعتز بلغته العربية . (د. حافظ شمس الدين – مؤتمراللغة العربية ، تحديات وآفاق – القاهرة 2010 م)

وبناء على ماسبق ، لابد من وضع استيراتيجية سياسية لغوية عملية وعلمية تنقل اللغة العربية بجانب وظيفتها الاجتماعية إلى وظيفتها العلمية ، وهذا يتطلب حتمية تعريب العلوم حيث إن معركة تحرير اللسان هى معركة القومية والحفاظ على الهوية ، فاللغة العربية هى الجامعة

لأمتنا باتساع خارطتها.كما أن التفاعل بين اللغات يتبعه تفاعل بين الثقافات شريطة الاحتفاظ بلغة الأمة وشخصيتها وقوميتها ، وبالتالى الحفاظ على هويتها .

ولذلك سأحاول فى هذا البحث أن أتناول بالتحليل والمناقشة بعض القضاياً الأساسية على النحو التالى :

1 - أهمية اللغة العربية كأساس للهوية .

2 - أهمية اللغة العربية فى الاتصال والتواصل والتبادل بين الحضارات .

3 - إبراز التحديات التى تواجه اللغة العربية .

4 - الاستفادة من وسائل التقنية الحديثة فى خدمة اللغة العربية .

5 - تعريب العلوم .

(أولاً) : أهمية اللغة العربية كأساس للهوية :

إن اللغة هى مفتاح الهوية والعمود الفقرى لكينونة الأمة ، فما من حضارة إنسانية إلا وصاحبتها نهضة لغوية ، وما من صراع بشرى إلا ويبطن فى داخله صراعاً لغوياً حتى قيل إنه يمكن صياغة تاريخ البشرية على أساس من صراعاتها اللغوية . لذا فالحفاظ على لغتنا حفاظاً على حياتنا – حاضرها ومستقبلها – فإذا ما ضاع اللسان ضاعت الأمة إلى الأبد . (د.نبيل على – الثقافة العربية فى عصر المعلومات – مجلة عالم المعرفة،الكويت – عدد ديسمبر 2001 م .)

فاللغة هى الوعاء أو الهيكل المجسد للهوية والانتماء للناطقين بها ، حيث إن اللغة تؤثر بشكل مباشر فى تشكيل الشخصية الإنسانية فى مختلف مستوياتها الفكرية والاجتماعية ، ومستودع للمعايير والقيم الثقافية المتوارثة بين الأفراد فى سياق ذمنى ممتد ، يربط الماضى بالحاضر والمستقبل . (د.تغريد نصر أصغر– تعريب التعليم الجامعى– مجلة عالم الفكر،الكويت – عدد يناير2000م ص197)

وتتميز اللغة العربية بثلاث خواص رئيسية حفظت لها بقاءها وتماسكها ، حيث تتمثل الخاصية الأولى فى أن اللغة العربية ارتبطت ببيئة البادية العربية ، وعبرت عن طبيعتها

وبساطتها وصفائها ومنطقية تراكيبها . ولذلك نجد أن اللغة العربية توجد أقوى ما تكون فى البادية وفى البيئة الريفية ، بينما تعمل بيئة الحضر والمدينة على تشويه أو إضعاف اللغة . وتؤكد الخاصية الثانية على أن اللغة العربية هى لغة القرآن ، وعبرت عن معانيه بأروع وأدق تعبير ، بما تعجز عن إنجازه آية لغة أخرى . وإذا كانت اللغة العربية قد عبرت بدقة عن المعانى القرآنية ، فقد شكل القرآن سياجاً حامياً لبناء اللغة بصورة مستمرة ومن ثم فقد اكتسبت اللغة العربية بعضاً من قدسية الدين الإسلامى . وتشير الخاصية الثالثة إلى النظرة العامة والشعبية إلى اللغة العربية باعتبارها المستوى الراقى للتعبير . فهى لغة الصفوة ، واللغة التى تتقنها الطبقة المثقفة فى المجتمع ، ثم هى اللغة الرسمية للدولة . ولهذا فقد لعبت هذه الخصائص دورها فى استمرار اللغة العربية كلغة للتعبير و الحفاظ على الهوية . (د . على ليلة – دور البحث العلمى فى مواجهة الاختراق للهوية القومية .)

وما من شك فى أن الازدواجية اللغوية فى المجتمع لها تأثير ضار على أفراد المجتمع مما يضعف الهوية والانتماء . فالشخص المزدوج لغوياً يصبح غريباً فى مجتمعه لا يستفيد من معارفه إلا القليل ، كما أنه لايشارك المحيطين به آمالهم وطموحاتهم . (د . فوزى تاج الدين محمد – التعريب يعمق الهوية العربية والمعرفة العلمية – مؤتمر اللغة العربية ، كلية الآداب – جامعة عين شمس – القاهرة 2010 م .)

إذن اللغة والقومية كما قال فيخته الألمانى(Fichte) " أمران متلازمان ومتعادلان " . ويقول جوته الألمانى : " يمكن للإنسان أن يتكلم بلغات متعددة ، لكنه لا يعيش إلا بلغة واحدة " .

وعليه فإن مانحتاج إليه هو تعزيز الهوية ، وتجاوز الشعور بالدونية ، وذلك من خلال الاهتمام باللغة العربية فى مراحل الدراسة الأولى ، حيث إنها علاقة جدلية بين الفكر والواقع .

لقد واجهت اللغة العربية الكثير من عوامل القمع وضربها فى مقتل ، وكان من بين هذه العوامل العولمة التى كانت من أبرز نتائجها تهديد الثقافة القومية والوطنية . وكذلك وجود الثنائية فى التعليم التى تتسبب فى تخلخل البناء الاجتماعى ، حيث ينشأ جيلان من أبناء الوطن لكل منهما أفكاره ومعتقداته بحسب اللغة التى تعلم بها . (د . ممدوح خسارة – تعريب التعليم وأثره فى مستقبل الثقافة العربية ، مجلة الكويت ، العدد 218 .)

والحديث عن ثنائية اللغة يدفعنا إلى مناقشة الاهتمام باللغة العربية فى المجال التعليمى ، هذا إلى جانب أن الإعلام التربوى يعد الخطوة الأولى فى بناء الصرح اللغوى لدى الطالب ، واللبنة الأساسية فى تحقيق الانتماء اللغوى وتعميقه ، وذلك من خلال جماعات أنشطة الصحافة المدرسية التى يمكنها القيام بدور فعال فى تحقيق الانتماء اللغوى عن طريق التخطيط للنشاط فى ضوء المقرر الدراسى والمستوى التحصيلى للطلاب ، مع توظيف مهارات الإرسال والاستقبال فى تحقيق الهدف الأسمى وهو الرقى باللغة العربية على ألسنتنا ومن خلال كتاباتنا . (للمزيد إنظر : د . فوزى تاج الدين محمد – التعريب يعمق الهوية العربية والمعرفة العلمية – مؤتمر اللغة العربية 2010 م – كلية الآداب ، جامعة عين شمس .)

ومما لاشك فيه أن مهارات الإرسال (التحدث والكتابة) ومهارة الاستقبال (الاستماع والقراءة) تعد جسراً للوصول إلى سيادة الانتماء اللغوى .

إذن اللغة هى الأساس فى كل شيئ يتعلق بالانتماء والحفاظ على الهوية ، وعليه فهناك ثمة اعتبارات ينبغى الانتباه إليها لتحقيق ذلك ، منها :

(أ) المسئولية الجماعية نحو الاهتمام بتعلم العربية وتيسيرها للناشئة ، حتى يشبوا على الاعتزاز بلغتهم ، وتعميم استخدامها فى كل مناحى الحياة ، بدلاً من التدافع نحو الألسن الأجنبية . (مصطفى موسى – مقدمة فى أساليب التنمية اللغوية للمبتدئين – دبى 1997 م .)

(ب) كل هذا يدعونا إلى بث الوعى بين الجماهير العربية بأهمية اللغة العربية ، ومقاومة إحساس الكثير من الناس بعدم ثقتهم فى كل ما هو عربى فأنجرفوا نحو كل ما هو أجنبى تقليداً ومحاكاةً ، ظناً منهم أن فى ذلك النهضة والتقدم والرقى . (د . أحمد بن الضبيب - الطبعة الأولى ، السعودية 1422 هـ .)

(ج) لم تعد قضية العربية والتعلم بالعربية قضية قومية فقط ، وإنما أصبحت شرطاً لتنمية أدوات التفكير والقدرات الذهنية والملكات الإبداعية واستيعاب المعرفة المتجددة ، وإلا ستظل أفكارنا متأثرة بالفكر الغربى ، حيث إن من يتعلم باللغات الأجنبية يختزن فى عقله وذاكرته ما تعلمه ، وبالتالى يستخدمه فى تعبيره وأفكاره وقتما شاء من منطلق ما هو معروف أن ثقافة الأمة تكمن فيما يُكتب بلغتها .

(د) أن أهمية اللغة فى الحفاظ على الهوية تكمن فى أن الهوية ليست معنى مجرداً ، ولكنها قيمة لاتتحقق إلا من خلال اللغة باعتبارها أداة تواصل ، فهى لغة الاتصال والتأثير والتأثر إذا أحسن الأكاديميون الوصول إلى أفراد المجتمع لتنمية الوعى العلمى لديهم وبناء جسور التواصل وتضافر كل الجهود تجاه ما يقوم به العلماء من دور فى التنمية البشرية عن طريق تبسيط العلوم .

(هـ) أهمية تطوير دور البحث العلمى فى الحفاظ على المكونات المعنوية للمجتمع وهى اللغة والثقافة والهوية فى عصر العولمة ، التى تسيطر فيه قوى العولمة بآدائها السلبى على قضايانا القومية المتنوعة .

إن التأكيد على أهمية اللغة يرجع إلى أنها وعاء التفكير ، والمدخل إلى تأسيس التراكم الثقافى ، وفى المقابل فإن إضعاف اللغة أو تفكيكها يعد فى هذه الحالة الآلية الحاسمة لتشويه الثقافة والهوية معاً . ولايخفى على أحدٍ منا اليوم أن العولمة التى أضعفت الدولة القومية فى العالم العربى ، قد عملت عن قصد لإضعاف لغتها كمدخل لإضعاف ثقافتها بالتالى القضاء على الهوية العربية .

(ثانياً) : أهمية اللغة فى الاتصال والتواصل والتبادل بين الحضارات :

من المعروف أنه لم يكن هناك صراع دينى بين العرب وحضارة العجم فى عهد بنى أمية بل كان الصراع صراعاً لغوياً ، أو صراعاً بين قوميتين . وظهرت بوادر هذا الصراع حين قام عبد الملك بن مروان بتعريب الدواوين فى الأمصار . فقد قوى الشعور بالقومية العربية لدى العرب فى عهده واشتد تعلقهم واعتزازهم بهذا اللسان العربى وأدركوا أنه لم يكن لهم هذا الكيان المتميز إلا على أساس لغتهم العربية التى كرمها الله عز وجل شأنه بنزول القرآن الكريم بها . (د.إبراهيم أنيس- اللغة بين القومية والعالمية – القاهرة 1970م ، ص 184)

وبعد كل ما سبق فإن المصطلحات بكل أنواعها المختلفة والمتباينة فى كافة المجالات ، تعد أولى قنوات الاتصال بين مجالات العلوم البشرية وهى بمثابة الجسور الواصلة بين اللغات الإنسانية إذا أخذ بعضها من البعض الآخر ، ولم يكن للمأخوذ منه فضل متعين على من أخذ منه .

لقد أدت العربية رسالتها حق الأداء إبان عصر الترجمة الأولى ، واتسعت للعديد من اللغات الأخرى ، ولم يضق صدر علمائها بأن يعربوا بعض الكلمات الأجنبية ، وكسوتها بكساء العربية فصارت جزءاً من الثروة اللغوية العربية . وقد جاء فى القرآن الكريم قوله عز وجل : " يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين " . (سورة الدخان ، أية 53)

إن لفظتى (سندس ، استبرق) أعجمية وهو نوع من الديباج أى الحرير ، وترجع أصولهما إلى اللغة الفارسية . هذا يوضح لنا مدى التواصل والتبادل اللغوى بين العربية وغيرها من اللغات الأخرى . وكلها ألفاظ تدل على أن العربية لا تضيق بالتعريب . وإلى جانب التعريب فهى لغة اشتقاقية ، مما يجعل لديها صيغ متعددة للمدلول الواحد وكلها وسائل لزيادة ثراء اللغة العربية وغنائها بألفاظ وتراكيب جديدة لإنقاذها من أى تأخر علمى أو تواصل حضارى .

وحينما نؤكد أن اللغة هى الوعاء الذى تنضج فيه الهوية ، فهذا ليس من قبيل رفع الشعارات الرنانة بعيدة المنال . إذ أن اللغة تؤثر بشكل كبير فى تشكيل الشخصية الإنسانية من حيث الانفعالات والأحاسيس والقيم والعلاقات الاجتماعية . فاللغة هنا تيسر للإنسان اكتساب ثروة لغوية تفيده وتفيد الآخرين ، ولانبالغ إذا قلنا إن اللغة هنا وسيلة التواصل للأخوة البشرية على مستوى المجتمع العربى ، يفهم كل عضو الآخر دون معاناة ، ويحدث التفاعل بشكل تلقائى دون افتعال .

فاللغة هى التى تحفظ المعارف والمعايير الثقافية والتاريخ الاجتماعى والثقافى المتوارث . تربط اللغة بين الماضى والحاضر والمستقبل ، كما تربط بين الأفراد . لذا فاللغة الأم عندما تسود بين أبناء الوطن الواحد تنضج الهوية وتصل إلى ذروتها . (د. ذكى رابح – أضواء على سياسة التعريب – مجلة المستقبل العربى – الجزائر ، 1984 م)

وإذا كانت اللغة والثقافة والدين هى الروابط المعنوية التى تربط الإنسان بمجتمعه ، فمن خلال اللغة يستطيع الإنسان أن يتواصل مع الآخرين ، ومن خلال معايير الثقافة يستطيع أن يشارك فى التفاعل الاجتماعى ، وأيضاً لأن قيم الدين تشكل جوهر ضميره الأخلاقى .

وعليه أصبحت اللغة العربية قوية لأنها مؤيدة بالدين الإسلامى والقران الكريم ، وصارت وسيلة الاتصال والتواصل بين العامة الذين يشكلون الأغلبية فى أى مجتمع .

(ثالثاً) : التحديات التى تواجه اللغة العربية :

إذا كانت اللغة العربية قد شكلت بعداً محورياً فى بناء الثقافة والهوية العربية زمناً طويلاً فإننا الآن نجد أن اللغة قد تراجعت فأثرت على الثقافة والهوية تراجعاً ، ويتمثل هذا التراجع فى انتقال اللغة من الهوية العربية الجامعة إلى الهوية القُطرية . فبعد أن كان التعليم الدينى الذى شكل محور التعليم الأساسى فى المجتمع العربى والذى تمثل فى نظام الكتاتيب التى كانت منتشرة فى معظم المجتمعات العربية ، فقد تراجعت اللغة العربية مع تراجع الثقافة والهوية العربية . فبرغم أن اللغة العربية ظلت لغة التعليم الدينى ، إلا أن التعليم العلمانى – الذى أسسته قوى التحديث والفرنجة فى معظم المجتمعات العربية – لم يكن على وفاق مع اللغة العربية . والأمثلة على ذلك كثيرة وبخاصة فى دول المغرب العربى . وكانت النتيجة إضعاف اللغة العربية والإسلام لكونهما يشكلان أساس الثقافة العربية .

ومن التحديات التى واجهت اللغة العربية ومازالت ، هجوم العولمة على اللغة العربية من خلال موجات العمالة الأسيوية إلى مجتمعات الخليج ، حيث لعبت هذه العمالة دوراً كبيراً فى تشويه اللغة العربية . ونظراً لأن هذه العمالة قد عملت فى مختلف المجالات ، فإن ذلك أدى إلى شيوع مفردات اللغات الدارجة الأسيوية كبديل لمفردات اللغة العربية فى مختلف مجالات الحياة اليومية . ونتيجة لذلك يمكن القول بأن اللغة العربية قد أفسحت المجال للغة عملية تستخدم فى التفاعل والتخاطب اليومى ، ليست عربية ولا أسيوية . لكنها لغة تحتوى على كلمات غير عربية يستعملها السكان العرب مكرهين من أجل التفاهم مع الآخرين . وهكذا تم ذوبان اللغة العربية فى هجين لغوى يبدو أنه تغلب عليها تدريجياً وتقدم بانتظام مع ازدياد وجود تأثير العمالة الأجنبية ، وانتشارها فى مختلف مجالات الحياة اليومية . (حيدر إبراهيم – العمالة العربية فى مجتمعات الخليج - ندوة العرب والعولمة – مرجع سابق ، ص 261)

غير أننا إذا تأملنا اللغة العربية فى الوقت الحاضر لوجدنا أنها أصبحت هدفاً للهجوم من مصادر خارجية وداخلية عديدة ، ويتمثل ذلك فى الاختراق الثقافى للثقافة العربية وهو الذى يستهدف تآكل الثقافة واللغة . فقد لعبت وسائل الإعلام و الاتصال عبر الفضاء المفتوح دوراً أساسياً فى ضخ كثير من الألفاظ والتراكيب اللغوية فى بنية اللغة العربية . ومن الطبيعى أن يؤدى هجر اللغة إلى هجر الثقافة ، وبذلك تكسب ثقافة العولمة أهميتها ويتقلص فى المقابل نصيب

الثقافة القومية . كذلك تسربت كثير من مسميات عناصر الثقافة الواردة إلينا من الخارج إلى بنية اللغة العربية ، وتحولت الأنظمة التعليمية العربية لتصبح أنظمة تعليمية باللغات الأجنبية ، مما أدى إلى انكماش مساحة اللغة العربية فى نطاق النظام التعليمى الرسمى ، وهو الأمر الذى يؤثر بطبيعة الحال على الثقافة والهوية العربية .

وبعد ظهور لغة الشباب التى تعد أحد مظاهر الفوضى التى وقعت فى بنية اللغة بفعل وتأثير قوى العولمة فى مختلف المجتمعات العربية ، حيث ظهرت عند الشباب لغة تتشكل من المفردات التى لايدرك معناها إلا الشباب ويتحقق بواسطتها تواصلهم . إضافة إلى أن قوى العولمة تراهن على الشباب باعتبارهم الشريحة التى يمكن من خلالها تفكيك الثقافة والمجتمع . إلى جانب انفصال هذه الشريحة عن المجتمع الذى عجز عن إشباع حاجاتهم الأساسية ، خاصة وأن هذه الشـريحة تتابع - من خلال الفضائيات - الحياة التى يعيشها نظراؤهم من الشباب فى أوربا وأمريكا حيث توفر لهم مجتمعاتهم إشباع حاجاتهم دون صعوبات ، وهو الأمر الذى يُعجز اللغة العربية عن أداء دورها فى دعم الهوية العربية .

وبناء عليه يبدو واضحاً اضطراب العلاقة بين اللغة والثقافة فى مجتمعنا العربى ، فعلى الرغم من التطور النسبى الذى تشهده ثقافتنا اليوم فى مجالات مختلفة ، لايزال تعليم اللغة محصوراً فى نطاق جامد يرتبط بعصور موغلة فى القدم ، فالمفارقة واضحة ولغتنا لا تواكب العصر .

لذلك تبدو اللغة العربية غريبة عن ثقافة العصر وقيمه ، وهكذا أخفقت مؤسساتنا لتعليم عربية متوهجة بروح العصر فنهضت العامية اضطراراً للقيام بهذا الدور ، وليكن أساس تعليم العربية دائماً عشق الطلاب للغتهم باعتبارها لسان الحال لا لسان التاريخ لأن اللغة .

لقد عمل خصوم اللغة العربية كل ما فى وسعهم من أجل تحقيق أهدافهم ، فرموا اللغة العربية واتهموها بعديد من الاتهامات المفتراة كالصعوبة والتعقيد والعجز عن مسايرة ركب الحضارة الحديثة وتكنولوجيا العصر ، واتخذوا من هذه الاتهامات والافتراءات ذريعة إلى الدعوة لإحلال العامية محل الفصحى بدعوى جمود هذه اللغة وقدمها ، بل والمناداة بتشجيع اللهجات المحلية فى الأقطار العربية والإسلامية وقللوا من شأن اللغة العربية الفصحى وقدرها بحجة أنها لغة جامدة تنتمى إلى عصور بادت وانقرضت . علاوة على تشجيعهم لانتشار اللغات الأجنبية بين

شعوب العالم العربى والإسلامى ، والدعوة إلى ضرورة استعمالها بحجة أنها اللغة العصرية الحية وأنها لغة الاختراع والحضارة المعاصرة .

ولم يقف العداء والخصومة للغة العربية عند هذا الحد ، بل أخذ هؤلاء الخصوم يطعنون فى الخط العربى ويرون فيه سبباً رئيساً لتأخر أمتنا عن ملاحقة ركب التقدم ، ووجدناهم يطالبون بتنحية الخط العربى عن الساحة ، واستبداله بالخط اللاتينى ، وإحلال الحروف اللاتينية محل الحروف العربية فى الكتابة والاستعمال اللغوى . وكان وراء هذه الدعوات التشكيكية الهدامة ضد اللغة العربية وأصولها وتراثها طائفة من المستشرقين وأتباعهم فى العالم العربى والإسلامى ممن عاشوا فى أحضان المدنية الغربية .

(رابعاً) : الاستفادة من وسائل التقنية الحديثة فى خدمة اللغة العربية :

من الطبيعى أن يلعب البحث العلمى ووسائل التقنية الحديثة فى الجامعات ومراكز البحث العلمى دوره فى الحفاظ على اللغة ، ومن ثم الحفاظ على الهوية القومية ، وذلك بالإجراءات التالية :

1 - أن يعمل البحث العلمى بإتجاه تجديد اللغة العربية وتحديثها ، حتى يمكن أن تتعايش مع الواقع المتغير الذى نعيشه .

2 - إعادة النظر فى تعليم اللغة العربية حتى نستفيد من التقنيات والأساليب الحديثة لتعليم اللغة لأبنائنا وتبسيط قواعدها ، حتى يتمكنوا من إتقانها لتكون لغة التعبير عن أفكارهم .

3 - مواجهة استخدام الشركات والمؤسسات الاقتصادية والاستثمارية لأسماء أجنبية أو أسماء مفرنجة ، تجمع في بنيتها مفردات عربية وأجنبية .

4 - إعادة التفكير في سياسات التعليم باللغة الأجنبية ، وهو التفكير الذي ينبغي أن يشمل التعليم الحكومي والخاص والأجنبي على حد السواء .

5 - ولتحقيق ذلك لابد من مضاعفة وجود اللغة العربية في هذه المؤسسات التعليمية بما يتوازي وثقل وجود اللغة الأجنبية ، وذلك حتى يمتلك الطالب التعبير باللغتين بنفس المستوى . ويساعده

ذلك على التواصل مع العالم الخارجي ، بينما يؤدى إتقانه للغة العربية إلى تعميق التواصل مع عالمه القومي العربي ويحافظ على هويته .

6 - الاهتمام بالوسائل الحديثة لتعليم اللغة مثل المعامل اللغوية وشرائط الكاسيت والفيديو واستخدام الاسطوانات المدمجة ، وكذلك الوسائل السمعية والبصرية والممارسات اللغوية المنظمة لجماعات النشاط الطلابية مثل الخطابة والصحافة والإذاعة وبرامج الحاسب الآلي وغيرها من الوسائل التي تهدف في مجموعها إلى التمكن من اللغة وأدواتها .

7 - التوعية بخطورة الضعف اللغوى والثقافى ، على الهوية الوطنية والانتماء القومى .

8 - التوعية بالأثار الخطيرة المنعكسة على المنطقة العربية والإسلامية نتيجة للضعف المتفشى فى اللغة العربية والثقافة القومية .

9 - البدء فى خطوات الإصلاح بالأيسر والأسهل ، والتوصية بالتركيز على مستوى " اللغة العربية المعاصرة " .

*****

(خامساً) : تعريب العلوم فى الجامعات العربية ومراكز البحث العلمى :

إن لغة تدريس العلوم فى الجامعات والمعاهد العليا موضوع بالغ الأهمية ، وليس من المبالغة أن نعدَه من أحقِ قضايانا بالدراسة الجادّة ، إذا ما أردنا أن نتلمس طريقنا إلى تعليم عالٍ حيٍ، ونهضة حضارية شاملة .

إن إهمال تعليم العربية فى بعض التخصصات ، هو القاعدة المتبعة فى عدد كبير من الجامعات العربية التى لاتعطى طلابها زاداً لُغوياً فى التخصصات العملية – كالطب بكل فروعه والهندسة والصيدلة والعلوم ونحوها – لايدرس طلابها كلمة عربية فى عدد كبير من الجامعات . وهكذا تُقتَصر معلومات خريجيها وخبرتهم باللغة على ما حصلوه خلال دراستهم فى مراحل التعليم العام . (د.على بن محمد أبو المكارم – من سلبيات تعليم العربية فى الجامعات – ندوة ظاهرة الضعف اللغوى ،– الرياض 1997م ، ص 240 – 241)

ولهذا فإن تعريب التعليم أصبح أداة حفاظ على توحد الأمة العربية ودوام اللغة التى تحوى علوم الأمة وهمومها .

لقد أثبتت الدراسات وجود تلازم بين التعليم باللغة القومية والسبق التقنى والتنمية البشرية ، ولايخفى على أحد أن تدنى مؤشرات التنمية لدينا وتدنى المردود الابتكارى لمواطنينا يدفعنا إلى بذل كل جهد فى سبيل تنمية لغة أمتنا العربية . وعليه فهل يمكن أن يساهم تعريب التعليم الجامعى فى إصلاح التعليم ؟! (- د.محمد يونس الحملاوى – التعليم باللغة القومية والتقدم العلمى – ص 2)

وبما تملكه اللغة العربية من استقرار لأنظمتها اللغوية والدلالية والصوتية والصرفية والنحوية ، فهى قادرة على استيعاب كل جديد ومستحدث من المصطلحات العلمية من خلال الاشتقاق والتعريب . والغريب أن واقعنا اليوم يشهد وجود فئة تنفى صفة العلم عن اللغة العربية وهناك من يقول : إن اللغة العربية لغة أدب وسرد ، وليست لغة علم وتقنية ، ونسوا أن ابن سينا – مثلاً – من رواد الطب فى العالم كتب مؤلفاته الطبية والفلسفية باللغة العربية .

إن تعريب التدريس الجامعى يعنى أنه يجب أن تتوافر إمكانية كتابة البحوث ونشرها باللغة العربية وهذا يتطلب توافر مجلات علمية عالمية معترف بها وواردة فى الفهارس العلمية العالمية .

إن استخدام لغة عربية موحدة يعد عنصر ائتلاف بين العرب جميعاً ، كما أن التعريب يعمل على إثراء اللغة العربية ، ونمو قاموسها . فاللغة العربية بلا منازع هى الرابط بين جميع أفراد الأمة ، والموحد للفكر والغاية . والأمر هنا يتطلب تبسيط العلوم باللغة العربية من أجل التفاعل بين الخاصة والعامة والقدرة على المشاركة الحضارية المعاصرة .

ومما يؤكد قدرة اللغة على استيعاب جميع المصطلحات الأجنبية أنها تضم أكثر من اثنى عشر مليون كلمة ومصطلح ، وهو ما يفوق ما هو موجود فى اللغات الهندأوربية مما يعنى أن اللغة العربية بثرائها تستطيع استخلاص آلاف المصطلحات والألفاظ من مختلف الجذور الأجنبية . (التعريب يعمق الهوية والمعرفة العلمية _ مرجع سابق ، ص 8 – 9)

إننى لا أرى أنه يوجد تعارض بين التعريب والتعلم ، إذ هو يغنى اللغة وينمى القدرات الإبداعية ، ويجعلها لغة عالمية كما كانت فى سبق عهدها ، إلا أن عملية التعريب يعوقها عدة أمور منها على سبيل المثال :

(أ) - غياب القناعة لدى البعض بتعريب التعليم العلمى وخاصة التعليم الطبى من قبل القائمين عليه من أساتذة الجامعات .

(ب) - ندرة المترجمين الأكفاء ، ويعود ذلك إلى قلة المردود المادى وعدم القناعة بعملية التعريب . خاصة وأن من يتولى هذه المهمة ، يجب أن يكون على إلمام تام بالعربية واللغة المترجم عنها ، فضلاً عن الإلمام بالعلم موضوع الترجمة .

(ج) - عزوف الناشر العربى عن نشر الكتاب العلمى ، وهذا أحد أسباب قلة انتشار العلم وتدنى مستوى البحث العلمى فى العالم العربى ، فما بالك لو كان باللغة العربية . (- ملحق مجلة العربى – عدد يناير 2010م – الكويت ، ص 3 .)

وفى النهاية لا جدال فى أن اللغة العربية ستظل حية باقية ، ولكن بدون التعريب سوف تتخلى مرغمة عن مكانتها كلغة عالمية رسمية رائدة ، لتصبح لغة ثانوية تابعة . فالتعريب أمر حتمى له دوافعه القوية ، فهو يحافظ على الهوية المميزة للأمة ، ويحقق المعاصرة الحضارية الفعالة المتمثلة فى الإسهام العلمى ، فلا وجود لأمة بدون لغة مميزة ، ولابقاء لها دون إسهام حقيقى فى مسيرة العلم .

إذن القضية لاتتعلق بهذا الأمر فقط وإنما كذلك باهتمام العرب فى نشر لغتهم خارج حدود وطنهم للحفاظ على هويتهم وانتشار فكرة التواصل والتبادل بين الحضارات ، وكانت الريادة فى ذلك لكل من مصر والمملكة العربية السعودية ، فقد حرصت مصر على إنشاء مدارس بالعديد من الدول الأفريقية كالصومال وجيبوتى ، إلى جانب إدارة البعوث الإسلامية واستقبال الطلاب الوافدين إلى الجامعات المصرية وبخاصة إلى جامعة الأزهر . كذلك إرسال العديد من أساتذة اللغة العربية إلى العديد من الدول الأفريقية ومنها غانا ونيجيريا لتعليم اللغة العربية بهدف توطيد العلاقات والتواصل كما أُنشِئت جامعة للغة العربية فى قازاخستان وتقوم بالإنفاق عليها السلطات المصرية .

أما عن المملكة العربية السعودية فإلى جانب استقبال العديد من الأفارقة والأسيويين الراغبين فى تعلم اللغة العربية بمعاهد اللغة العربية بمعظم الجامعات السعودية ، فقد أنشأت المملكة بعض المدارس وكذلك الجامعات الإسلامية فى باكستان والصين واليابان وغيرها من الدول الأسيوية ، وحرصت على إدارتها والإشراف علي تلك المؤسسات ، ولابد أن ينسحب ذلك على باقى أقطار الوطن العربى للحفاظ على هويتنا وتدعيم فكرة التواصل والتبادل بين الحضارات .

*** * * * ***

والله ولى التوفيق ،،،

التوصيات :

1- قصر التعليم فى دور الحضانة (رياض الأطفال) والمرحلة الابتدائية حتى سن التاسعة فى جميع المواد الدراسية والأنشطة المدرسية على اللغة العربية ، وذلك لإيجاد قاسم مشترك بين جميع الأطفال فى هذه المرحلة التأسيسية من حياتهم ، ولسنا وحدنا فى هذا الأمر ، فهناك دول كثيرة سبقتنا فى هذا المجال ومنها فرنسا وألمانيا وغيرها على سبيل المثال ,

2- العناية بتدريس اللغات الأجنبية ابتداءً من المرحلة الإعدادية (المتوسطة) كلغة ثانية على أن يكون تدريسها بجدية كاملة وفاعلية ، وليس على حساب اللغة العربية ، لأننا لسنا ضد تعلم اللغات الأجنبية ، بل ضد التعليم باللغات الأجنبية !

3- تدريس اللغة العربية كمقرر قومى بجميع الكليات والمعاهد العليا ، وبخاصة بجميع أقسام كليات التربية ، حتى يتخرج المعلم القادر على أن يعبر عن نفسه وعن مادته العلمية التى يقدمها للطلاب بعد ذلك بلغة عربية صحيحة .

4- قصر الالتحاق بمدارس اللغات الدولية على أبناء الجاليات الأجنبية درءاً لخطر هذه المدارس على أبنائنا وهويتهم العربية . وقد كان هذا هو السائد فى بداية إنشاء هذه المدارس ، فلماذا لاتعيد الحكومات العربية إلزام هذه المدارس الأجنبية إلى ما أُنشئت من أجله !

5- وضع مشروع ثقافى يهدف إلى حماية هويتنا القومية ، وهذا يتطلب تكاتف جهود الأكاديميين لتعريب العلوم ، والتعاون المنظم بين المجامع اللغوية العربية ومؤسسات التعريب .

6- تحقيق المعاصرة الحضارية فى الإسهام العلمى ، خاصة وأن الإنتاج العلمى العربى ضعيف بالمقارنة مع غيره .

7- تغيير الصورة السيئة عن العرب بأنهم أمة مستهلكة للحضارة ، وليست أمة منتجة للحضارة .

8- الحفاظ على اللغة العربية فى المحافل الدولية ، وتحقيق السيادة لها بوصفها لغة علم وثقافة ضد أى غزو أجنبى .

9- ضرورة تواصل القنوات العلمية فى العالم العربى بوحدات البحث العلمى للنهوض بالوطن العربى كله كجزء لايتجزأ .

*****

المصادر والمراجع :

1- إبراهيم أنيس (دكتور) – اللغة بين القومية والعالمية – القاهرة 1970 م .

2- أحمد بن الضبيب (دكتور) – الطبعة الأولى السعودية 1422 هـ .

3- تغريد نصر أصغر (دكتور) – تعريب التعليم الجامعى – مجلة عالم الفكر – الكويت 2001 م .

4- حافظ شمس الدين (دكتور) – تعلم لغة أجنبية وليس التعلم باللغة الأجنبية – مؤتمر اللغة العربي ، تحديات وآفاق – جامعة عين شمس ، القاهرة 2010 م .

5- حيدر إبراهيم – العمالة العربية فى مجتمعات الخليج – ندوة العرب والعولمة (بدون تاريخ) .

6- رمضان عبد التواب (دكتور) – فصول فى فقه اللغة العربية – القاهرة 1980 م .

7- زكى الجابر (دكتور) – اللغة العربية والإعلام الجماهيرى (بدون تاريخ) .

8- زكى رابح – أضواء على سياسة التعريب – مجلة المستقبل العربى– الجزائر 1984م

9- شكرى فيصل (دكتور) – مكانة اللغة العربية من الحياة العربية والمجتمعات الإسلامية – تونس 1990 م .

10- صالح الخرفى (دكتور) – اللغة العربية هويتنا القومية – تونس 1990 م .

11- عبد الله الشلال (دكتور) – ظاهرة الضعف فى استعمال اللغة فى التعليم – ندوة ظاهرة الضعف اللغوى فى المرحلة الجامعية ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – الرياض 1995 م .

12- على بن محمد أبو المكارم (دكتور) – من سلبيات تعليم العربية فى الجامعات – ندوة ظاهرة الضعف اللغوى ، الرياض 1997 م .

13- على ليلة (دكتور) – دور البحث العلمى فى مواجهة الاختراق للهوية – القاهرة 2010 م

14- فوزى تاج الدين – التعريب يعمق الهوية والمعرفة العلمية – مؤتمر اللغة العربية ، تحديات وآفاق – القاهرة 2010 م .

15- محمد يوسف الحملاوى (دكتور) – التعليم باللغة القومية والتقدم العلمى – مؤتمر اللغة العربية – القاهرة 2010 م .

16- مصطفى موسى – مقدمة فى أساليب التنمية اللغوية للمبتدئين – دبى 1997 م .

17- ملحق مجلة العربى – الكويت ، عدد يناير 2010 م .

18- ممدوح خسارة (دكتور) – تعريب التعليم وأثره فى مستقبل الثقافة العربية – مجلة الكويت ، عدد 218 .

19- نبيل على (دكتور) – الثقافة العربية فى عصر المعلومات – مجلة عالم المعرفة ، الكويت 2001 م .

*****